المناضل الفرنسيّ هنري علاّق وثورة التّحرير الجزائريّة

د. الطّيب ولد العروسيّ
مكتبة العالم العربيّ، – باريس– فرنسا.

آثار كتاب القضية أو السؤال، للمناضل الفرنسي "**هنري علاق**" كثيرا من النقاش والاهتمام الإعلامي والأكاديمي في الغرب، لأنه وصف ضمن أدب السجون، أي المعتقلات والتعذيب من منطلق "**الأنا**" الراوية والمشاركة في الأحداث وكبطلة له، لأنه بين مقاومته للعذاب وللألم من جهة، وتحديه للجلادين من جهة أخرى ركز على شجاعته وبسالته ورفضه للاستسلام، كما أكد على فضح الاستعمار.

يعدّ كتاب "**القضية**" **La question** من بين الشهادات التي ساعدت على كشف المسكوت عنه فيما يخص التعذيب الذي كان يمارسه مجموعة من الضباط الفرنسيين اتجاه المناضلين الجزائريين، أو المساندين الأوروبييينوغيرهم لثورة التحرير الجزائرية.

كتب المناضل **هنري علاق** "**تجربته**"– التي عاشها في سجون المستعمر الفرنسي، بداية من شهر **جوان 1957م**– بالدم والألم والعذاب، وذلك عند ملاحقة أصحاب جميع الأقلام التي كتبت في جريدة "**الجزائر الجمهورية**" التي كان يشرف عليها، فعاش علاق متخفياً، حياةً سرية مع المجاهدين الجزائريين إلى أن ألقى عليه القبض جنود مظليون تابعون للفرقة المظلية العاشرة **les parachutistes de la 10e D. P.** يوم **12 حزيران/ جوان 1957م** في منزل صديقه **موريس أودان**

Maurice Audin الذي اعتِقل ومات تحت التعذيب في ظروف غامضة، لا يعرف مكانا لجثته، ولا كيف تمت وفاته وأين؟ كل ما نعرف كما يقول هنري علاق هو أنه "**مات مثل الكثير من المناضلين في ظروف غامضة تحت التعذيب..**"[1]. وهدف المستعمر هو تخويف المناضلين الأوروبيين لكي يمتنعوا عن مساندتهم للثورة الجزائرية، إذ يقدم الكاتب رقما يقدره بأكثر "**من ثلاثة آلاف شهيد**"[2]، لا يعرف أين دفنوا، ماتوا إما تحت التعذيب، أو رميا من الطائرات، أو تم وضعهم في إطار إسمنتي ورمي بهم في أعماق البحار لكي لا ترى أجسادهم.

صدر كتاب "**القضية**" **أو** "**السؤال**" شهر **فيفري عام 1958م**، حيث كان **هنري علاق** يكتب يوميا عدة صفحات بكثير من الخوف، وبعيدا عن أنظار الحراس، بعد أن لقي تشجيعا من قبل مجموعة من الأصدقاء وبعض محاميه الذين حرضوه على القول، وعندما أتم المسودة أرسلها إلى منشورات "**مينوي**" **Minuit**، الذي كان يديرها **جيروم ليندون Jérôme LINDON** الذي عرف بشجاعته وبرغبته في نشر نصوص صادقة منطلقة من الواقع، لأنه ورغم الخوف وتهديد الإدارة الاستعمارية له ولكل من يتطرق إلى قضايا مثل هذه، والتي كانت تمس ضباطا ومسئولين مهمّين في الدولة، كانت الإدارة تهدد كل من يقدم على أعمال كهذه بغلق مؤسساتهم أو أحيانا يودع بهم في السجون، لكن مدير هذه الدار تحدى كل ذلك واختار نشر الكتاب، إذ بيع منه خلال الأسابيع الأولى أكثر من ستين ألف نسخة، لكن الإدارة منعته، فكان الناس يصورونه ويرسلونه أو ينصحون الناس بقراءته، كما أصدرته جريدة "**لو كانارد أنشيني**" **في إحدى أعدادها**"[3]، ولكن بخط صغير لا يقرأ بسهولة، مما أجبر الناس أن يستعينوا بعدسات مكبرة لقراءته، كما أعاد طباعته ناشر سويسري، الشيء الذي يبين بأن الكتاب جذب أنظار الرأي العام الفرنسي والعالمي، وهو كتاب لم يكن محصورا على المناضلين فقط، بل أراده المؤلف أن يصل إلى أكبر شريحة اجتماعية. حيث يصرح قائلا:

"ها أنا كتبتُ حكايتي. ولم يسبق لي أبداً أن كتبتُ بهذه الصعوبة وبهذا الجهد الجهيد ربما لأن الألم ما زال حاراً في ذاكرتي، أو ربما لأن هذا الكابوس الذي عشت أهواله والتي يعيشها في هذه اللحظة التي أكتب فيها أشخاص آخرون، وسيعيشها آخرون حتماً ما لم تتوقف هذه الحرب الكريهة، كان عليّ أن أقول كل ما أعرف. وأنا مدين بهذه الكتابة إلى موريس أودان Maurice Audin"[4].

الجدير بالذكر أن **موريس أودان** كان رفيق **علاق** وصديقه وزميله الذي اعتقله الجيش والذي يقول فيه: **"إنني أكتب له وإلى كل الذين أُهينوا وعُذّبوا ويواصلون الكفاح بكل شجاعة وبطولة، مدين به إلى كل الذين يموتون كل يوم في سبيل حرية بلدهم"**[5]. ثم يواصل قائلا: **"كتبت حكايتي بعد أربعة أشهر من تعذيبي على يد المظليين في الزنزانة رقم 72 في سجن بربروس سجن الجزائر المدني"** [6]

كان لهذا الكتاب أثر كبير، استجاب له الكثير من المثقفين وعلى رأسهم **جان بول سارتر ومورياك وأندريه مالرو**، وآخرون راحوا ينددون بالقمع الذي يمارس ضد المناضلين الجزائريين في السجون الاستعمارية، كما راحوا يكتبون وينظمون لقاءات حول الموضوع، وأرسلوا وثيقة إلى رئيس الجمهورية في ذلك الوقت وقعوا عليها صحبة مجموعة هامة من المثقفين.

كان **هنري علاق** مدير تحرير جريدة **"الجزائر الجمهورية"** لسان حال الحزب الشيوعي الجزائري، وكانت معروفة بمواقفها المنددّة والفاضحة للاستعمار، كما كانت تفتح صفحاتها إلى كل مؤيد لاستقلال الجزائر، مما أزعج الإدارة الفرنسية التي ألقت القبض على الكثير من مسئولي الجريدة، إبان **"حرب الجزائر العاصمة" la bataille d'Alger، التي يؤكد الكاتب بأن الاستعمار استعمل فيها كل ما هو ممكن للقضاء على المناضلين"**[7]، وهو يرى بأنها لم تكن **"حربا"** كما أطلق عليها الاستعمار الذي أعطاها هذه العبارة عنوة، بل يرى بأنها **"كانت خطة**

جهنمية استعملها بعض الضباط لكي يوهموا الفرنسيين بأن هناك حربا بينهم وبين سكان العاصمة، استعملوها للقضاء على الكثير من الجزائريين شيوخا ونساء وأطفالا ومناضلين شرفاء"[8]، حتى أن القمع كان "**سيد الموقف**" في العاصمة وأحوازها، مما دفع بالكثير من المناضلين للتنديد وفضح هذه الجريمة المنظمة، كما أعطى لهؤلاء الضباط إمكانية شد الخناق أكثر على الجزائريين بالأساس، حيث تم سجن الآلاف من ضمنهم الكثير من الأوروبيين المساندين للثورة، وكان المناضل علاق من ضمن هؤلاء الذين ناضلوا من أجل فضح ممارسات الإدارة الاستعمارية، فقبض عليه وأودع في السجن، أو كما يقول في "**مصنع التّعذيب**" الكائن بمنطقة الأبيار. إذ أذاقوهم التعذيب الممنهج، ماداموا قد رفضوا التعاون مع المستعمر وأعوانه، هذا ما يؤكده الكاتب حينما طلب منه الضابط شاربونيه **chardonnet*** قائلا له: "**أنت صحفي؟ لذا يجب أن تفهم بأننا نريد أن نعرف كل شيء وعلى دراية، يجب أن تعلمنا.**" [9]

بعد أن القي القبض على **علاق**، راحت مجموعة من الضباط – أو في الحقيقة الجلادين–تسأله لكي تعرف أين قضى أيامه بعد أن هرب من سكنه، ودخل حياة السرية، وعن أولئك الذين ساعدوه، فكان لا يريد البوح ولا التعامل معهم، رغم أنهم كانوا يهددونهحتى بتعذيب زوجته "**جيلبيرت**" وأولاده في حال إذ ما واصل في تعنته، "**هل تظن بأن أولادك محميون لأنهم في فرنسا، إننا نستطيع المجيء بهم متى أردنا.**" [10]

كان يعرف بأنهم قادرون على فعل الشر، كما فعلوا مع زوجات بعض المناضلين، لكنه أصرّ أن لا يجيب على أسئلتهم، فما كان من شاربونيه إلى أن أعطى أوامره بتعذيبه، إذ يقول: "**كان شاربونييه يعذبني بالكهرباء رافعا صوته مرددا نفس الكلام أين قضيت ليلتك قبل أن يتم توقيفك؟**"، **كما كانوا يأخذون**

"**وقودا يشعلونها ويضعونها على صدري وأطراف أصابع رجلي، ومن كثرة الألم أصبحت لا أحس مما أزعجهم كثيرا.**" (11)

كما منعوه من الأكل والشرب، ووعدوه بإطالة مدة العذاب وابتكار "**فنيات**" أخرى، وضعوا له الكهرباء داخل فمه، حتى نشف ريقه، وحينما عرفوا بأنه وصل إلى طريقة لا تحتمل من العطش، أعطوه كمية ماء كانت شديدة الملوحة. وهكذا كانت حلقات العذاب تتواصل ولكنها لا تتشابه، لأنهم جربوا معه كل الإمكانيات من التجويع والعطش والإهانة، هذا ناهيك عن موجات الكهرباء، غير أنه لم يقل أي كلمة، حتى أن الجنرال "**ماسو**" **MASSU*** المعروف زاره في سجنه واقترح عليه أن يتكلم، ويجيب على أسئلته، وإلا فإنه يزيده عذابا، لكنه بقي صامتا متحديا إياهم، فحولوه إلى مكان آخر ووضعوه بالقرب من خزانة، وراحوا يعطونه قليلا من الماء معترفين بأنهم تجاوزوا حدودهم في تعذيبه، حتى أن بعض الجنود اغتاظوا لحالته، فنصحوه بالكلام، "**وأحدهم اعترف له بشجاعته لمواصلته الصمت وعدم بيع أصدقائه، ــ طلبت من علاق أي يوم نحن؟، ــ الجمعة .أجاب الجندي، إنني في التعذيب المتواصل دون توقف منذ يوم الأربعاء**"(12)، ثمّ يتكلّم عن الأصوات التي كانت تصله من جراء التعذيب، حتى خيّل إليه أن يسمع صوت زوجته **جيلبيرت**، ووصف الحالة التي كانت تغزو المكان بوحشيتها وتراجيديتها، دون أي رأفة أو إنسانية.

يقول **علاق**: "**لا أنسى ذات ليلة عندما جاءني الكابتان شاربونييه وأمرني بتحضير نفسي ثم طلب موهما أياي** قائلا: "**احضروا أودان وحجاجي، لنأخذ كل واحد منهم على حدة.**" (13) لكنه كان ثابتا مقتنعا بأنه مستعد لدفع الغالي والنفيس من أجل مثله ومبادئه ومن أجل رفاقه في النضال.

يرى **علاق** بأن الجلادين لم تكن لهم عواطف، أو أنها ماتت، لأنهم أصبحوا يتلذّذون بما يقومون به، أي أصبحوا ساديين حقيقيين، وأصبح التعذيب "**مهنتهم**

اليومية". وحتى طبيب السجن راح يوهمه بإنسانيته، وذلك بإقناعه بالبوح وإلا فإنهم يستعملون معه "**التعذيب العملي**"، الذي كان يشرف عليه هو نفسه، أعطاه جرعة من المخدّرات على شكل دواء، غير أن **هنري علاق** وضعها تحت لسانه موهما الطبيب بأنه تناول الجرعة التي سلمت له، ثم بصقها، فراح الطبيب يختبر إدراكه رويدا رويدا، إذ طرح عليه مجموعة من الأسئلة حتى يعرف أين قضى أيامه الأخيرة قبل أن يتم إيقافه، وكانت أسئلته متمحورة حول مكان وجود الرفاق يقول: "**رحت أجيبه بثقة محاولا التحدث بطمأنينة وبضبط النفس، فكان الضابط يعطيه عنوان غلط لكي يوهمه بأنه يعرف مكان تواجدهم منتظرا من علاق أن يصحح له غلطته، لكنه عرف اللعبة رغم كمية "المخدرات" التي وضعوها هذه المرة في جسده عبر محقنة". هذه المخدرات التي أثّرت في نفسيته حتى بدأ يفكر في الانتحار، لكنه استعاد وعيه وعرف أنه لو عمل ذلك، فهو سيحقق أمنية جلاديه. وفي الغد طرح عليه أحد الضباط السؤال التالي: "هل تعذبت خلال المقاومة بنفس الحدة، فرد عليه، لا إنها المرة الأولى، فأجابه جميل، ثم قال كعارف، إنك قوي**"[14].

كما جاءه عسكريّ آخر وقال له: "**لقد حضرت كل فترة تعذيبك، والدي حدثني عن شجاعة الشيوعيين أثناء المقاومة، إنهم يفضلون الموت، لكنهم لا يصرحون بشيء، وهذا موقف بطولي ورائع**"[15].

يقر المؤلف بأن مكان تواجده في حقيقة الأمر ليس مركزا للتعذيب فحسب، بل مدرسة للشباب الفرنسيين لتعويدهم من طرف الضباط الجلادين وتكوينهم أو تعليمهم كيف يعذبون الجزائريين.

من ضمن النقاشات التي سجلها في كتابه مع الضباط الذين كانوا يستعملون معه كل الطرق للوصول إلى غايتهم، حواره مع أحدهم الذي أعلن له بكل صراحة عن رغبته في أن تنتقل هذه الحرب إلى بلدان أخرى **كتونس والمغرب**، لأنه نادم

على أن الحملة الفرنسية بقيادة **نابليون** لم تؤد إلى انفلات عام، حيث أظهر حقده الاستعماري الدفين للجزائريين، الذين كان **هنري علاق** واحدا منهم لأنه انتسب إلى قضيتهم والتحق بالجزائر قادما من **باريس** سنة **1939م**، تزوج من المناضلة **جيلبيرت** عام **1946م**، وتقلد رئاسة تحرير جريدة "**الجزائر الجمهورية**"، حتى قبض عليه، كانت رغبة هذا الضابط هو التخلص من علاق، حتى أنه هدده بذبحه بسكينة ذات ليلة.

وكانت كلماته تتجسد في الواقع العملي، حينما كان يعذب المواطنين الجزائريين الذين كانوا يأتوا بهم إلى السجن وهم في لباس النوم، أو بدون أحذية، إذ كانت قلوب المعذبين مثل الحجر الأصم، وأصبحوا بدون إنسانية، وكأنهم يتلذذون بتعذيب الجزائريين، "**كما كانوا يظهرون احتقارهم بتشديد العذاب على المسلمين وبإظهار عنصريتهم تجاههم**" **وكان المسلمون حينما يلتقوا علاق في السجن يحيونه لأنهم كانوا إما التقوه في المظاهرات التي كانت تدعوا إليها الجريدة، أو يقرؤون كتاباته، "كنت أقرأ في عيونهم تضامنهم معي، وصداقة تدفعني بالشعور بالافتخار كوني أوروبيا وقف بجانبهم."**[16].

قضى **علاق** في الأبيار شهرا تقريباً، حيث ذاق أصناف العذاب لكي ينتزع منه المحققون معلومات عن الجزائريين المجاهدين وبخاصة عن الفرنسيين المتعاونين معهم وذلك تحت تأثير مادة كانت تُحقن في ضلوعه، هي الـــ **penthotal**. ثم نُقِل إلى سجن **لودي Lodi** بمدينة **المدية**، حيث بقي شهراً آخر، وأخيراً نقل إلى سجن **بربروس**، وهو سجن **الجزائر** المدني، وحكم عليه بعشرة سنين سجنا، لأنه حسب الإدارة الفرنسية كان يشكل خطرا "**على أمن الدولة**". ثم نقل إلى سجن بمدينة "**رين**" وذات يوم عندما أخذوه إلى مستشفى المدينة، فر منه بمساعدة بعض رفاقه، وذهب إلى **تشيكسلوفاكيا** ثم عاد إلى **الجزائر** مع اتفاقيات

إيفيان، وغادرها بعد الانقلاب الذي قام به **بومدين،** ليجد نفسه مرة أخرى في **باريس.**

يعرّف الكاتب سجن **بربروس** بأنه معتقل كان يُساق إليه الجزائريون لمجرد وشاية كاذبة أو تهمة ملفقة بمجرد قرار إداري لا يستند إلى أي إثبات بحقّ أي منهم.. ويصف **هنري علاق** هذا السجن قائلا: "**في هذا السجن الذي يعجّ بالسجناء، كل زنزانة مترعة بالألم. وإن أنا أردتُ أن أروي ما حصل لي شخصياً من أعمال التعذيب، فإني سأشعر بالخجل من نفسي. ففي الطابق الأرضي من السجن قسم المحكومين بالإعدام وكان عددهم ثمانين سجيناً مغلولي الأرجل بالحديد. وعلى وتيرة حركاتهم وسكناتهم كنا نعيش. لم يكن فيهم واحد لا يعود مساءً إلى الحصيرة التي يفترشها لينام وهو يتصور كيف سيطلع عليه صبح رهيب أو يحلم بكل ما لديه من قوة الأمل بأنه لن يحصل له أي مكروه. ومع ذلك كانت من الطابق الأرضي بالذات تتصاعد كل يوم أغنيات رائعة تنبض بها حناجر هؤلاء الأبطال الذين هم قلب الشعب الجزائري المكافح من أجل حريته**" [17]

يشير الكاتب إلى تلك الحالة التي كانت تصيب السجناء لحظة صعود أحد المناضلين إلى منصة الإعدام، وهم يرددون نشيد من جبالنا":

من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا للاستقلال
ينادينا للاستقلال
لاستقلال وطننا
تضحيتنا للوطن
خير من الحياة
أضحي بحياتي
وبمالي عليك
يا بلادي يا بلادي ".

يعتبر كتاب **هنري علاق** أحد المفاتيح المهمة التي ساهمت في التعريف بحرب التحرير الجزائرية، إذ حينما صدر كان مؤلفه يقبع في السجون الاستعمارية الفرنسية، مما دفع **بجان بول سارتر** في مقالة له بالقول: "**الهدوء هو نتيجة شجاعة الضحية، تواضعها ووضوحها يهيئنا لكشف الغطاء، علاق ينتزع عن سبات الليل العذاب الذي كان يخفيه**"[18].

والحقيقة التي كان يريدها الكاتب هي فضح هذه المعاملات الوحشية التي كانت بنت قرون أخرى، وأنه يرى بأن فرنسا كانت تمارس ما لم تجرأ على الاعتراف به، وكان **علاق** يأمل أنه "**من الضروري ومن المفيد أن نكافح من أجل التعريف بما تعنيه هذه الحرب، أصلها، جذورها، أسباب التكالب عليها من مختلف الحكومات الفرنسية المتعاقبة والتي جعلتها ترفض الاعتراف بحقوق الجزائريين**"[19].

ثم يواصل قائلا: "**وعليه نساعد الشباب الذين تُركوا ــ قصدا ــ في الجهل ودون معرفة هذا الماضي القريب، وأخذ الدروس منه للمستقبل، مستقبل مليء بالتهديدات والعواصف التي ينبغي مواجهتها، لأنه لا يستبعد أن تبرز نزاعات أخرى، وهي كثيرة الآن، هنا أو هناك في إحدى أرجاء العالم.**"[20].

ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات، وحوّل إلى مسرحية، وهناك الكثير من الكتابات التي مشت على منواله يحكي أصحابها شهاداتهم ومعايشتهم في جحيم العذاب الذي كانت تديره مجموعة من الضباط الفرنسيين على مستوى عال من الحكومة الفرنسية، هذه الشهادات تبين وقوف أصحابها مع ثورة التحرير الجزائرية، كما تروي بطولات إنسانية رائعة.

هذه الكتابات كانت بمثابة سلاح قام بها أصحابها لتعرية الواقع، ولقول المسكوت عنه، وبالتالي كشف الممارسات اللا إنسانية المخالفة تماما لما يروق للفرنسيين ترداده، أي احترام حقوق الإنسان، والدفاع عن كرامته، هذه الشهادات

تثبت العكس تماما لأنها كانت تعامل الإنسان بوحشية تنتسب إلى قرون خلت، ولكن هذه المعاملات لا زالت متواصلة في سجون الاحتلال الإسرائيلي على مسمع ومرأى من العالم، وكأن العالم لا يريد أخذ الدروس من هذا الماضي غير المشرّف للإنسانية جمعاء.

الهوامش:

1- Henri ALLEG.- La Question,- Paris : minuit .-2008 : page 2.
2- Retour sur "La Question". Quarante ans après la guerre d'Algérie, entretien avec Gilles MARTIN.- Paris : les temps des Cerises.- 2012.- page 8.
3- idem page 10.
4- Henri ALLEG.- La Question,- Paris : minuit.-2008 : page 12
5- idem, page 14.
6- idem, page 18.
7- idem, page 20.
8- Retour sur "La Question". Quarante ans après la guerre d'Algérie, entretien avec Gilles MARTIN.- Paris : les temps des Cerises.- 2012.- page 18.
9- Henri ALLEG.- La Question,- Paris : minuit.-2008 : page 28.
10- idem, page 31.
11- idem, page 54.

*** الجنرال ماسو، لعب دورا خطيرا في حرب التحرير في الجزائر، كان رئيسا للقوات الفرنسية في ألمانيا، وشارك في حرب الفيتنام ثم في حرب الجزائر حيث كان مسئولا عن الفرقة العاشرة للمظليين الفرنسيين.**

12- idem, page 58.
13- Henri ALLEG.- La Question,- Paris : minuit.-2008 : page 65.
14- idem, page 72.
15- idem, page 73.
16- idem, page 78.
17- idem page 82.
18- Retour sur "La Question". Quarante ans après la guerre d'Algérie, entretien avec Gilles MARTIN.- Paris : les temps des Cerises.- 2012.- page 6
19- idem, page 4
20- idem, page 5